التَّنَاصُّ فِي شِعْرِ البُحتُرِيِّ
قِرَاءَةٌ فِي " المَرْثِيَّةِ " والسِّينِيَّةِ "

Intertextuality in El-Buhturi's poetry

A Reading In El-Marthia and El- Sinya

حُسَيْن بَلْهَادِي
دُكتُوراه في النَّقْدِ الحَدِيثِ وَالمُعَاصِر
جَامِعَةُ الدُّكْتُور مُولاَيْ الطَّاهَرْ - سَعِيدَة.
belhussein@gmail.com

الملخص:
تَرُومُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ فَتْحَ آفَاقَ جَدِيدَةً فِي قِرَاءَةِ النَّصِّ العَرَبِيِّ القَدِيمِ عَبْرَ مُقَارَبَتِهِ بِأَدَوَاتٍ إِجْرَائِيَّةٍ حَدَاثِيَّةٍ، مُلْتَمِسَةً مِنْ خِلاَلِ ذَلِكَ بُلُوغَ جُمْلَةٍ مِنَ المَقَاصِدِ والغَايَاتِ النَّقْدِيَّةِ وَالفَنِّيَّةِ التِّي مِنْ شَأْنِهَا تَجْلِيَةُ مَوَاطِنِ الجَمَالِ فِي تِلْكَ النُّصُوصِ التِّي، لَعَلَّ الإِجْرَاءَاتِ "القَدِيمَةَ" تَكُونُ قَدْ قَصُرَتْ عَنْ إِدْرَاكِهَا، إِمَّا لِعَجْزٍ فِي الأَدَاةِ ذَاتِهَا، أَوْ لأَنَّهَا قَدْ اسْتَنْفَدَتْ كُلَّ طَاقَاتِهَا فِي التَّعَامُلِ مَع النَّصّ.
مِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ، وَعَلَى أَسَاسِهِ قَامَ هَذَا البَحْثُ، غَايَتُهُ الأُولَى مَعْرِفَةُ مَدَى اسْتِجَابَةِ كُلِّ نَصّ قَدِيمٍ عُمُومًا، وَنَصُّ البُحْتُرِيّ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِيصِ لِتِلْكَ الأَدَوَاتِ التِّي يَسْتَعِيرُهَا النَّاقِدُ مِنْ عَصْرٍ غَيْرِ عَصْرِ الشَّاعِرِ. فَكَيْفَ سَتَكُونُ رَدَّةُ فِعْلِ ذَلِكَ النَّصّ سِلْبًا وإِيجَابًا؟ وَإِلَى أَيَّةِ دَرَجَةٍ سَيَتَقَبَّلُ مِبْضَعَهَا فِي جَسَدِهِ؟ هَلْ سَيُفَعِّلُ مَنَاعَتَهُ فَيَلْفُظَ كُلَّ عُضْوٍ دَخِيلٍ أَمْ سَيَقْبَلُهُ مُكْرَهًا عَلَى مَضَضٍ؟

- **الكَلِمَاتُ المِفْتَاحِيَّةُ:-** الشِّعْرُ العَرَبِيُّ القَدِيمُ - النَّقْدُ - التَّنَاصُّ - القِرَاءَةُ - التَّدَاخُلُ - التَّكْرَارُ.

Abstract:

This study aims to open new horizons in reading the ancient Arabic text by approaching it with modern procedural tools, seeking, through this, to achieve a number of critical and artistic goals and objectives, intent and ends that would reveal the beauty in those texts that perhaps, the old procedures have failed to realize it, because of a deficiency in the tool itself, or because it has exhausted all its energies in dealing with the text.

From this point of view, and on the basis of this research, its first purpose is to find out the extent to which each ancient text in general, and the AL-buhturi texts in particular, responds to those tools that the critic borrows from an era other than the poet's one. So how will that text react, positively or negatively? And to what degree will he accept her scalpel in his body? Will he activate his immunity and reject every intruder, or will he accept it reluctantly?

- **Keywords**: Ancient Arabic Poetry - Criticism - Intertextuality - Reading - Overlap - Repetition.

- تَوْطِئَةٌ:

إِذَا كَانَ التَّدَاخُلُ وَالتَّرَاكُمُ سِمَةَ النُّصُوصِ " البَعِيدَةِ "، أَيْ تِلْكَ التِّي اخْتَلَفَتْ أَزْمِنَةُ قَوْلِهَا وَأَصْحَابُهَا وَثَقَافَاتُهُمْ وَلُغَاتُهُمْ، فَكَيْفَ لاَ يَكُونُ الأَمْرُ كَذَلِكَ مَعَ نُصُوصِ الشَّاعِرِ ذَاتِهِ؟!

هُوَ، بِالتَّأْكِيدِ، سُؤَالٌ مَنْطِقِيٌّ وَجَادٌّ يَفْتَحُ أَمَامَنَا أَبْوَابًا لِفَهْمِ بَعْضٍ مِنْ طَبِيعَةِ الإِبْدَاعِ وَمَاهِيَّتِهِ الخَفِيَّةِ، مِنْ أَيْنَ يَسْتَدِرُّ الشَّاعِرُ مَعَانِيهِ؟ وَكَيْفَ يَصُوغُهَا فِي غَيْرِ مَا تَكْرَارٍ فَجٍّ، ظَاهِرِيٍّ عَلَى الأَقَلِّ؟، " إِنَّهُ يُجْهِدُ نَفْسَهُ لِيُدْرِكَهَا...كَمَا تَنْبَثِقُ فِي ذَاكِرَتِهِ المُبْدِعَةِ، وَبِالخُصُوصِ كَمَا تُوجَدُ فِي ذَاتِهِ مُبَنْيَنَةً مُسْبَقًا بِأَمَاكِنِهَا المُظْلِمَةِ وَالمُضِيئَةِ، بِتَجَاوُبَاتِهَا وَ انْفِجَارَاتِهَا وَمُجَانَسَاتِهَا الخَفِيَّةِ، وَتَسَلْسُلاَتِهَا المَأْلُوفَةِ. فَحَوْلَ كُلِّ مَوْضُوعٍ تُنْسَجُ شَبَكَةٌ مُتَحَرِّكَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ مِنَ الحَوَافِزِ. وَانْبِثَاقُ هَذِهِ الحَوَافِزِ، الذِّي تُحْدِثُهُ حَرَكَةُ اللُّغَةِ التِّي تَحْمِلُهَا، تَتَّجِهُ نَحْوَ إِعَادَةِ تَكْوِينِ نِظَامٍ وَبِنْيَةٍ دَاخِلِيَّةٍ تَبْرُزُ فِي الكِتَابَةِ وَعَبْرَهَا "[1].

هَكَذَا يُصْبِحُ كُلُّ نَصٍّ ظَاهِرًا لِبَاطِنٍ، حَيْثُ وَ أَنْتَ تَقْرَأُهُ تَكْتَشِفُ، كَقَارِئٍ صَاحِبِ رَصِيدٍ مَعْرِفِيٍّ، أَنَّ هَذِهِ المَعَانِي لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَنْكَ، قَدْ مَرَّتْ بِفِكْرِكَ، وَهِيَ مَأْلُوفَةٌ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الجِهَاتِ، كَوْنَ كُلِّ نَصٍّ مَقْرُوءٍ يُخْفِي آخَرَ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ رِيفَاتِيرْ " إِيبُوغْرَامْ "[2]، وَأَنَّ لِكُلِّ نَصٍّ حُضُورًا فِعْلِيًّا دَاخِلَ نَصٍّ آخَرَ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ جِيرَارْ جِينَاتْ[3]، وَتَذْهَبُ جُولْيَا كْرِيسْتِيفَا إِلَى أَنَّ " كُلَّ نَصٍّ هُوَ امْتِصَاصٌ وَتَحْوِيلٌ لِنَصٍّ آخَرَ "[4].

فَيَعُودُ التَّنَاصُّ انْطِلاَقًا مِنْ هَذَا المَفْهُومِ، بِنَاءً لِنَصٍّ جَدِيدٍ مِنْ سَابِقِهِ، حَيْثُ كُلُّ خِطَابٍ إِعَادَةٌ لآخَرَ[5]، وَ" يَغْدُو النَّصُّ المُتَنَاصُّ خُلاَصَةً لِعَدَدٍ مِنَ النُّصُوصِ التِّي تَمَّحِي الحُدُودُ بَيْنَهَا، وَأُعِيدَتْ صِيَاغَتُهَا

[1]- جَمَالُ الدِّينِ بْنُ الشَّيخِ، فِي الشِّعْرِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، تَرْ: مُبَارَكْ حَنُّونْ وَمحَمَّدُ الوَلِيُّ وَمحَمَّدُ أُورَاغْ، دَارْ تُوبْقَالْ لِلنَّشْرِ، الدَّارُ البَيْضَاءُ، المَغْرِبُ، ط1، 1996م، ص153.

[2]- *Gérard Gengembre, Les Grands Courants de la critique littéraire, éditions du seuil,1996, P:47.*

[3]- *Ibid, p:47.*

[4]- *Ibid, p:46.*

[5]- *Ibid, p:47.*

بِشَكْلٍ جَدِيدٍ، بِحَيْثُ لمْ يَبْقَ مِنَ النُّصُوصِ السَّابِقَةِ سِوَى مَادَّتُهَا. وَغَابَ(الأَصْلُ) فَلاَ يُدْرِكُهُ إِلاَّ ذَوُو الخِبْرَةِ وَالمِرَانِ "[1].

هُنَا تَتَدَخَّلُ أَدَوَاتُ القِرَاءَةِ وَإِجْرَاءَاتُهَا، وَهِيَ مُتَغَيِّرَةٌ مِنْ قَارِئٍ لآخَرَ، بَلْ وَعِنْدَ القَارِئِ الوَاحِدِ حِينَ يَنْتَقِلُ مِنْ نَصٍّ إِلَى غَيْرِهِ، لِذَا " يُمْكِنُ القَوْلُ أَنَّ النَّصَّ هُوَ مُتَغَيِّرٌ بِاسْتِمْرَارٍ، وَمُتَحَوِّلٌ. وَأَنَّ دِرَاسَتَهُ يَنْبَغِي أَنْ تَهْتَمَّ بِ(تَقَاطُعَاتِ النَّصِّ)، حِينَ تَعْتَبِرُهُ جُزْءًا مِنْ كُلٍّ، أَوْ مُفْرَدًا بِصِيغَةِ الجَمْعِ، وَأَنَّ لَهُ مَاضِيًا وَحَاضِرًا وَمُسْتَقْبَلاً "[2].

وَيُقَرِّرُ مِيشَالْ أَرِيفِي أَنَّ:" النَّصَّ الثَّانِي يمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَضْمُونُهُ النَّصَّ الأَوَّلَ هُنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ مِيتَاسِيمْيُوتِيقَا"[3]، وَذَلِكَ مَا نَرَاهُ يَتَجَسَّدُ مِنْ خِلاَلِ نَصَّيْ المَرْثِيَّةِ وَالسِّينِيَّةِ، فَالنَّصُّ الأَوَّلُ،كَمَا سَنَعْمَلُ عَلَى تِبْيَانِهِ، يُعِيدُ نَفْسَهُ، يُعِيدُ مَوْضُوعَتَهُ وَحَقَائِقَهُ، بِشَكْلٍ يَتَطَابَقُ مَعَ الثَّانِي فِي عِدَّةِ أَوْجُهٍ، إِنْ لمْ يَكُنْ فِي جُلِّهَا، هَذَا يَضَعُنَا أَمَامَ مَسْأَلَةٍ فِي غَايَةِ الأَهمِيَّةِ يَعْرِضُ لهَا النُّقَّادُ المحْدَثُونَ بِإِسْهَابٍ، وَيَقِفُونَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ تَقَاطُعَاتِهَا، فَ "التَّنَاصُّ لاَ يَفْتَرِضُ دَائِمًا تَحْوِيلاً لِنُصُوصٍ غَرِيبَةٍ عَنِ النَّصِّ المعَارَضِ، قَدْ يحْدُثُ أَنْ يَكُونَ التَّنَاصُّ دَاخِلَ النُّصُوصِ الوَاحِدَةِ، لِنَفْسِ المؤَلِّفِ "[4]، وَفِي هَذَا الطَّرْحِ يَذْهَبُ مُونْسِي حَبِيبْ، مَعَ عَدِيدِ النُّقَّادِ غَيْرِهِ، إِلَى أَنَّ " التَّنَاصَّ وَهُوَ يُعَبِّرُ عَنِ الاسْتِمْرَارِيَّةِ الجَنِينِيَّةِ لِلنَّصِّ، يَكْشِفُ أَنَّ الإِبْدَاعَ (نَصٌّ) وَاحِدٌ (أَزَلِيٌّ) (مُسْتَمِرٌّ) تُعَبِّرُ الإِنْجَازَاتُ المتَتَالِيَةُ عَنْ تَمَظْهُرَاتِهِ التيّ تَتَنَاسَبُ طَرْدًا وَالموَاقِفَ التّي أَمْلَتْهَا فَقَطْ. فَإِذَا تَغَيَّرَتْ هَذِهِ الاقْتِضَاءَاتُ الخَارِجِيَّةُ تَغَيَّرَ شَكْلُ النَّصِّ لِيُنَاسِبَهَا، وَيُنَاسِبَ حِدَّةَ التَّوَتُّرَاتِ التّي تَسْكُنُهَا "[5].

فَالقَصِيدَةُ كَمَا يَقُولُ ابْنُ الشّيخِ، تَقُومُ أَسَاسًا عَلَى بُنَى سَالِفَةٍ، إِذْ هِيَ: "صُورَةٌ، بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى، لِمَجْمُوعٍ سَابِقٍ عَلَيْهَا. فَانْطِلاَقًا مِنْ دَافِعٍ أَصِيلٍ يُحَدِّدُ المشْرُوعُ بِصُورَةٍ جُزْئِيَّةٍ، وَمِنَ الخُطَاطَاتِ اللُّغَوِيَّةِ التّي

[1]- محمَّدُ عَزَّامْ، النَّصُّ الغَائِبُ - تجَلِّيَاتُ التَّنَاصِّ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيّ- دِرَاسَةٌ، إِتِّحَادُ الكُتَّابِ العَرَبِ، دِمَشْقُ، سُورِيَا، د.ط، 2001م، ص26.

[2]- محَمَّدُ عَزَّامْ، النَّقْدُ وَالدَّلاَلَةُ - نَحْوَ تَحْلِيلٍ سِيمْيَائِيٍّ لِلأَدَبِ، مَنْشُورَاتُ وَزَارَةِ الثَّقَافَةِ، دِمَشْقُ، د.ط، 1996م، صص 144،143.

[3]- يُنْظَرُ: أَنْوَرُ المرْتَجَى، سِيمْيَائِيَّةُ النَّصِّ الأَدَبِيّ، إِفْرِيقْيَا الشَّرْقُ، المغْرِبُ، د.ط، 1987م، ص46.

[4]- نَفْسُهُ، ص46.

[5]- حَبِيبْ مُونْسِي، تَوَتُّرَاتُ الإِبْدَاعِ الشِّعْرِيّ، دَارُ الغَرْبِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، ط2001م-2002م، ص67.

تَسْتَوْلِي عَلَى ذَلِكَ الدَّافِعِ وَتُتَرْجِمُهُ، يُعِيدُ الشَّاعِرُ إِنْتَاجَ بِنْيَةٍ وَيُدْمِجُهَا فِي نِظَامِ التَّلَقِّي"[1]. وَيَجَبُ هُنَا التَّأْكِيدُ، أَنَّ " التَّنَاصَّ لَيْسَ إِعَادَةَ إِنْتَاجٍ بَلْ إِنْتَاجًا، بِحَيْثُ بِوَسَائِلَ جَدِيدَةٍ، يَتِمُّ تَحْوِيلُ النَّصِّ الأَوَّلِ لِيُصْبِحَ وَاحِدًا مِنْ دَلاَلاَتِ (عَلاَمَاتِ) النَّصِّ الثَّانِي الذِّي يَحْتَوِيهِ "[2] تَلاَقُحًا وَتَفَاعُلاً فِي مُسْتَوَيَاتِهِ كُلِّهَا.

1- بَيْنَ رِثَاءَيْنِ:

اتِّكَاءً عَلَى هَذَا الذِّي سَلَفَ، سَنُحَاوِلُ، فِي هَذِهِ الوَقْفَةِ العَجْلَى مَعَ نَصَّيْنِ، لَعَلَّهُمَا مِنْ أَجَلِّ مَا فِي دِيْوَانِ البُحْتُرِيِّ، أَنْ نَسْتَشِفَّ بَعْضَ مَوَاطِنِ التَّلاَقِي، وَمَكَامِنِ التَّدَاخُلِ التِّي عَمِدَ إِلَيْهَا شَاعِرُنَا، سَوَاءً عَنْ قَصْدٍ وَتَمَثُّلٍ، أَوْ قَدْ تَكُونُ مِمَّا تَفَلَّتَ مِنَ الذَّاكِرَةِ فَتَسَرَّبَ إِلَى مَا اسْتَجَدَّ مِنْ قَوْلٍ، فَفَرَضَ حُضُورَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَوْطَنَ عُشَّهُ[3]، واحْتَضَنَ بَيْضَهُ مِنْ غَيْرِ مَا سُلْطَانٍ أَوْ قُدْرَةٍ عَلَى رَدِّهِ، فَصَارَ صَاحِبَ البَيْتِ بِالتَّكْرَارِ والإِصْرَارِ والاسْتِحْوَاذِ.

هَذِهِ هِيَ حَالُ البُحتُرِيِّ مَعَ نَصَّيْ المَرْثِيَّةِ وَالسِّينِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ الفَارِقُ الزَّمَنِيُّ بَيْنَهُمَا يَصِلُ إِلَى ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً - فِيمَا يَجْزِمُ مُحَقِّقُ الدِّيْوَانِ - فَإِنَّ القَوَاسِمَ المُشْتَرَكَةَ مُتَجَلِّيَةٌ فِيهِمَا عَلَى صُعُدٍ كَثِيرَةٍ، سَنَعْمَلُ هُنَا عَلَى الكَشْفِ عَنْ جَوَانِبِ التَّمَاسِ فِي نِتَاجِ الشَّاعِرِ ذَاتِهِ، وَهُوَ يُحِيلُنَا إِلَى الفِكْرَةِ وَالمَعْنَى وَالصُّورَةِ وَالخَيَالِ، وَغَيْرِهَا مِنْ عَنَاصِرِ التَّرْكِيبِ الأَدَبِيِّ التِّي بَنَى البُحْتُرِيُّ عَلَيْهَا نَصَّيْهِ، حَتَّى غَدَيَا، فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، مُؤَشِّرًا عَلَى وَحْدَةِ المَنْبَعِ، وَ اتِّفَاقِ الحِسِّ الشِّعْرِيِّ، وَوَفَائِهِ لِلقَامُوسِ وَالزَّادِ الذِّي يَتَمَلَّكُهُ.

وَرُغْمَ مَا قَدْ يَبْدُو مِنْ بُعْدٍ زَمَنِيٍّ، وَاخْتِلاَفٍ ظَرْفِيٍّ بَيْنَ القَصِيدَتَيْنِ، فَإِنَّ قِرَاءَةً مُتَأَنِّيَةً فِيهِمَا تَجْعَلُ مِنَ المُتْعَةِ اكْتِشَافَ مَوَاطِنِ التَّشَاكُلِ بَيْنَهُمَا، فِي وَقَفَاتٍ عَمِلَتْ فِيهَا الذَّاكِرَةُ وَالاسْتِرْجَاعُ الذَّاتِيُّ عَمَلَهُمَا فِي

[1]- جَمَالُ الدِّينِ بْنُ الشِّيخِ، الشِّعْرِيَّةُ العَرَبِيَّةُ، ص153.

[2]- *Gérard Gengembre, les grands courants de la critiques littéraire, p:48.*

[3]- أُحِيلُ هُنَا إِلَى قَوْلِ مِيشَال تُورْنِيِ *Michel Tourner*:" بَلْ ذَهبتُ إِلَى المحَاكَاةِ كَطَائِرِ عَقْعَقٍ مُتَلَصِّصٍ [...] لأُرَاكِمَهُ فِي عُشِّي ". يُنْظَرُ:

Jean-Luis de Rambures, Comment travaillent les écrivains, Flammarion, Paris, 1978, P:163, "La part proprement inventée est minime dans mes romans. J'ai pillé [...] Je (me suis inspire) [...] j'ai été jusqu'à pasticher [...] comme une pie voleuse [...] pour l'entasser dans mon nid".

بِنَائِهِمَا، وَفِي تَأْكِيدِ الخِطَابِ السَّابِقِ فِي المرْثِيَّةِ، بَلْ وَتَعْمِيقِهِ فِي السِّينِيَّةِ لأَنَّهَا، كَمَا ذَكَرْنَا، تَوَلَّدَتْ عَنْ تَفَكُّرٍ وَتَأَمُّلٍ فِي الحَيَاةِ، بَعْدَ أَنْ عَمَّرَ البُحْتُرِيُّ، وَخَبِرَ أَحْوَالَ الدُّنْيَا، وَسَبَرَ أَغْوَارَهَا.

إِنَّ المُدَقِّقَ فِي جِهَاتِ النَّظَرِ إِلَى السِّينِيَّةِ وَزَوَايَا تَحْلِيلِهَا يَجِدُهَا مُتَبَاعِدَةً، بَيْنَ رَاءٍ أَنَّهَا وَصْفٌ، وَقَائِلٍ أَنَّهَا رِثَاءٌ لِلمَمَالِكِ الزَّائِلَةِ، وَمَنْ يَرَى خِلاَفَ هَذَا وَذَاكَ،... أَمَّا " مَحَلٌّ عَلَى القَاطُولِ " فَيُجْمِعُ الدَّارِسُونَ عَلَى كَوْنِهَا قَصِيدَةَ رِثَاءٍ. وَإِذْ لاَ يَهُمُّنَا كَثِيرًا، الخَوْضُ فِي تَفَاصِيلِ هَذَا الزَّعْمِ وَخِلاَفِهِ، نَقُولُ بِأَنَّ النَّصَّيْنِ فِي حَقِيقَتِهِمَا رِثَاءٌ، وَلَكِنْ أَيَّ رِثَاءٍ نَقْصِدُ؟!

إِنَّهُ " لاَ مَزِيدَ فِي التَّفَجُّعِ عَلَى الدِّيَارِ وَالتَّوَجُّعِ لِلدِّمَنِ وَالآثَارِ عَلَى قَوْلِ البُحْتُرِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ يَرْثِي بِهَا المتَوَكِّلَ: مَحَلٌّ عَلَى القَاطُولِ أَخْلَقَ دَاثِرُهْ ..."[1]، ثُمَّ إِقْرَأْ بَعْدَ ذَلِكَ السِّينِيَّةَ تَجِدْ أَنَّهُ بَكَى فِيهَا نَفْسَهُ وَالمَدَنِيَّةَ الزَّائِلَةَ؟ فَقَدْ أَشْبَعَ الشَّاعِرُ نَصَّيْهِ بُكَاءً مِنْ غَدْرِ الزَّمَانِ الذِّي دَخَلَ " الجَعْفَرِيَّ " فَعَكَّرَ صَفْوَهُ، وَ أَقَضَّ رَاحَتَهُ، وَعَادَ " جُيُوشًا تُغَاوِرُهْ ". هَذَا الزَّمَانُ ذَاتُهُ كَانَ أَتَى عَلَى " الإِيوَانِ " فَأَحَالَهُ " بَنِيَّةَ رَمْسٍ "، تَلَبَّسَتْهُ المَآسِي وَ"جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسٍ ".

لَقَدْ رَجَا الشَّاعِرُ وَانْتَظَرَ تَحَقُّقَ آمَالِهِ ثَلاَثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، حِينَ قَالَ فِي المرْثِيَّةِ:

وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ تُرَدَّ أُمُورُكُمْ *** إِلَى خَلَفٍ مِنْ شَخْصِهِ لاَ يُغَادِرُهُ.

مُقَلِّبُ آرَاءٍ تُخَافُ أَنَاتُهُ *** إِذَا الأَخْرَقُ العَجْلاَنُ خِيفَتْ بَوَادِرُهُ.

فَهُوَ رَاغِبٌ فِي أَنْ يَمِيلَ الدَّهْرُ إِلَيْهِ ثَانِيَةً بِأَنْ يَتَوَلَّى العَهْدَ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ[2]، وَلَكِنَّهُ وَلَّى خَائِبًا، خَاضِعًا لِتَقَلُّبِ الدَّهْرِ إِلَى غَيْرِ مَا يَهْوَى، فَانْثَنَى يَعْتَبِرُ مِنَ الإِيوَانِ وَيَرْبِطُ تِلْكَ الأَمَانِي القَدِيمَةَ بِالمَاضِي الأَبْعَدِ، حَيْثُ مَدَّ الفُرْسُ لِلعَرَبِ يَدَ المسَاعَدَةِ فِي دَحْرِ أَعْدَائِهِمْ:

[1]- المَقَرِيُّ، شِهَابُ الدِّينِ أَحمَدُ بْنُ محَمَّدٍ التِّلِمْسَانِيُّ، نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ، ج1، دَارُ صَادِر، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط1، 1900م، ص503.

[2]- تَوَلَّى "المنْتَصِرُ" ابْنُ المتَوَكِّلِ العَهْدَ وَهُوَ قَاتِلُ أَبِيهِ، وَكَانَ الشَّاعِرُ أَمْيَلَ إِلَى أَنْ يَكُونَ "المعْتَزُّ" هُوَ الخَلِيفَةَ لأَنَّهُ أَقْرَبُ شَبَهًا بِوَالِدِهِ فِي مُعَامَلَةِ البُحْتُرِيِّ. يُنْظَرُ: الدِّيْوَانُ، هَامِشُ، ص1045 و1047و1048.

أَيَّدُوا مُلْكَنَا، وَشَدُّوا قُوَاهُ *** بِكَمَاةٍ تَحْتَ السِّنَّوَّرِ حُمِسِ.

وَ أَعَانُوا عَلَى كَتَائِبِ أَرْيَا *** طَ بِطَعْنٍ عَلَى النُّحُورِ وَدَعْسِ.

فَذَاكَ مُجْرِمٌ فِي حَقِّ أَبِيهِ يَسْتَعِينُ بِالأَتْرَاكِ لارْتِكَابِ عَمَلِهِ " الأَخْرَقَ "[1]، فِي الوَقْتِ الذِّي كَانَ الشُّرَفَاءُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ يُقَدِّمُونَ العَوْنَ فِي زَمَنِ الشِّدَّةِ، فَلِلشَّاعِرِ أَنْ يَكْلَفَ بِهِمْ أَبَدَ الدَّهْرِ:

وَأَرَانِي مِنْ بَعْدُ أَكْلَفُ بِالأَشْـ *** ـرَافِ طُرًّا مِنْ كُلِّ جِنْسٍ وَإِسِّ.

وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ المدْحِ وَالرِّثَاءِ غَيْرَ أَنَّ الأَوَّلَ ثَنَاءٌ عَلَى حَيٍّ وَالآخَرُ ثَنَاءٌ عَلَى مَيِّتٍ، فَإِنَّ البَيْتَ الأَخِيرَ قَدْ جَمَعَهُمَا إِلَى بَعْضِهِمَا، إِذْ جَمَعَ فِي الحِينِ ذَاتِهِ بَيْنَ الرَّجَاءِ فِي النَّصَّيْنِ، وَجَعَلَ اللاَّحِقَ مِنْهُمَا تَتِمَّةً لِخِطَابِ السَّابِقِ!

2- المَكَانُ بَيْنَ السِّينِيَّةِ وَالمَرْثِيَّةِ:

يَسْتَدْعِي البُحْتُرِيُّ المَكَانَ، بَلْ لَعَلَّ هَذَا الأَخِيرَ هُوَ الذِّي يَفْرِضُ عَلَيْهِ سُلْطَتَهُ وَعُنْفُوَانَهُ، وَهُوَ فَطِنٌ لأَهَمِّيَّةِ الفَضَاءِ/الطَّلَلِ فِي بِنَاءِ نُصُوصِهِ، وَاسْتِوَاءِ مَعَانِيهِ عَلَى صِيغَةٍ تُرْضِي طَرِيقَتَهُ فِي القَوْلِ الشِّعْرِيِّ، وَالتِّي عُرِفَ بِهَا فَالْتَزَمَهَا وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهَا. فَالشَّاعِرُ المُتَمَرِّسُ يُوَظِّفُ " البِنْيَةَ الطَّلَلِيَّةَ لِتَنْقُلَ المَوْقِفَ الذِّي يُرِيدُ أَنْ يُوصِلَهُ لِلمُتَلَقِّي مُتَّخِذًا مِنْ تِقْنِيَّةِ التَّنَاصِّ قِنَاعًا يَتَسَتَّرُ خَلْفَهُ "[2]، وَهُوَ الحَاصِلُ فِي بِنْيَةِ النَّصَّيْنِ هُنَا، تَنَاءَتْ جُغْرَافِيَّتُهُمَا لَكِنَّ أَحْدَاثَهُمَا، مَاضِيًا وَحَاضِرًا، تَشَابَهَتْ حَدَّ التَّطَابُقِ فِي المَآلِ وَالمَصِيرِ، سَعَادَةً وَحُزْنًا، إِشْرَاقًا وَ أُفُولاً، قَصْرًا فَقَبْرًا، خَمْرَةً ثُمَّ دَمًا.

تَشْغَلُ البِنْيَةُ الطَّلَلِيَّةُ حَيِّزًا كَبِيرًا فِي القَصِيدَتَيْنِ، بَلْ إِنَّهُمَا ذَاتُهُمَا طَلَلاَنِ يَشْهَدَانِ عَلَى قَائِلِهِمَا بِصِدْقٍ. فَفِي السِّينِيَّةِ نَجِدُ حُضُورَ الطَّلَلِ عَلَى وَجْهَيْنِ:

[1]- الدِّيْوَانُ، الهَامِشُ، ص1045.

[2]- مَاجِدْ يَاسِينْ الجَعَافِرَةُ، التَّنَاصُّ وَالتَّلَقِّي- دِرَاسَاتٌ فِي الشِّعْرِ العَبَّاسِيِّ، دَارُ الكِنْدِيِّ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، إِرْبِدْ، الأُرْدُنُ، ط1، 2003م، ص20.

- وَاحِدٌ مِنْهُمَا سِلْبِيٌّ: مُنْهَكٌ بِضَرَبَاتِ الدَّهْرِ تمَامًا كَمَا الشَّاعِرُ، فُهُوَ: مِنَ الجِدَّةِ إِلَى أَنْضَاءَ لُبْسٍ، وَمِنْ عَدَمِ الأُنْسِ وَإِخْلاَقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسٍ، جَعَلَتْ فِيهِ اللَّيَالِي مَأْتمًا بَعْدَ عُرْسٍ، يَتَظَنَّى مِنَ الكَآبَةِ، مُزْعَجًا بِالفِرَاقِ عَنْ أُنْسِ إِلْفٍ، أَوْ مُرْهَفًا بِتَطْلِيقِ عُرْسٍ، عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي، عَلَيْهِ كَلْكَلٌ مِنْ كَلاَكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي، فَصَارَتْ لِلتَّعَزِّي رِبَاعُهُمْ وَالتَّأَسِّي.

- وَأَمَّا الوَجْهُ الثَّانِي فَإِيجَابِيٌّ، وَهُوَ الذِّي افْتَقَدَهُ البُحْتُرِيُّ مِنْ قَصْرِ المتَوَكِّلِ، وَيَسْتَذْكِرُهُ فِي صُورَةِ الإِيوَانِ هُنَا: ظِلِّ عَالٍ مُشْرِفٍ يحْسُرُ العُيُونَ وَيخْسِي، مُغْلَقٌ بَابُهُ عَلَى جَبَلِ القَبْقِ، حِلَلٌ لمْ تَكُنْ كَأَطْلاَلِ سُعْدَى فِي قِفَارٍ، وَكَأَنَّ الإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْعَةِ جَوْبٌ، بُزَّمِنْ بُسُطِ الدِّيبَاجِ، وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدِّمَقْسِ، مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ رُفِعَتْ، لاَبِسَاتٍ مِنَ البَيَاضِ، أَصُنْعُ إِنْسٍ لجِنٍّ؟ أَمْ صُنْعُ جِنٍّ لإِنْسِ؟، عُمِّرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْرًا.

وَمَا وُقُوفُ الشَّاعِرِ عَلَى صُورَتَيْ القَصْرِ فِي حَالَيْهِ، الإِيجَابِيَّةِ وَالسِّلْبِيَّةِ غَيْرَ محَاوَلَةٍ لإِقَامَةِ التَّوَازُنِ المفْقُودِ بَيْنَ مَاضِيهِ السَّعِيدِ وَحَاضِرِهِ التَّعِسِ، حَتَّى لاَ يَهْوِي مَهْزُومًا أَمَامَ اللِّئَامِ كَمَا صَرَّحَ فِي أَوَّلِ السِّينِيَّةِ:" وَتمَاسَكْتُ حِينَ زَعْزَعَنِي الدَّهْرُ"، فِي سَعْيٍ مِنْهُ لِتَجَاوُزِ محْنَتِهِ مَعَ خُصُومِهِ، خُصُوصًا وَأَنَّ بَيْنَهُمْ وَرِيثُ السُّلْطَةِ قَاتِلُ أَبِيهِ الذِّي جَهَرَ بمُعَارَضَتِهِ فِي " المرْثِيَّةِ " إِذْ أَذْهَلَهُ الغَضَبُ عَنْ أَنْ يَحْتَرِزَ مِنَ العَوَاقِبِ:

أَكَانَ وَلِيُّ العَهْدِ أَضْمَرَ غَدْرَةً؟*** فَمِنْ عَجَبٍ أَنْ وُلِّيَ العَهْدَ غَادِرُهْ![1]

وَصُورَةُ الطَّلَلِ (قَصْرِ المتَوَكِّلِ) فِي المرْثِيَّةِ، كَمَا فِي السِّينِيَّةِ عَلَى وَجْهَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ أَيْضًا:

- الأَوَّلُ سِلْبِيٌّ: مَحَلٌّ عَلَى القَاطُولِ أَخْلَقَ دَاثِرُهْ، تَغَيَّرَ حُسْنُ" الجَعْفَرِيِّ "وَقُوِّضَ بَادِي " الجَعْفَرِيِّ " وَحَاضِرُهْ، تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكِنُوهُ..فَعَادَتْ سَوَاءً دُورُهُ وَمَقَابِرُهْ، إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الأَسَى، وَلَمْ أَنْسَ وَحْشَ القَصْرِ إِذْ رِيعَ سِرْبُهُ، وَإِذْ صِيحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهُتِّكَتْ...أَسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ، وَوَحْشَتُهُ حَتَّى كَأَنْ لمْ يُقِمْ بِهِ أَنِيسٌ.

[1]- البُحْتُرِيُّ، أَبُو عُبَادَةَ الوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، الدِّيْوَانُ، تَحْ: حَسَنُ كَامِلُ الصَّيْرَفِيُّ، دَارُ المعَارِفِ، القَاهِرَةُ، مِصْرُ، ط2، 1963م، ص1048.

- الثَّانِي إِيجَابِيٌّ: رُبَّ زَمَانٍ نَاعِمٍ..تَرِقُّ حَوَاشِيهِ، وَيُونِقُ نَاضِرُهْ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ يُبْهِجُ زَائِرُهْ، تَبِيتُ فِيهِ الخِلاَفَةُ طَلْقَةً بَشَاشَتُهَا وَالمُلْكُ يُشْرِقُ زَاهِرُهْ، وَالعَيْشُ غَضٌّ مَكَاسِرُهْ، تَمَنَّعَتْ بِهَيْبَتِهَا أَبْوَابُهُ وَمَقَاصِرُهْ.

إِنَّ مُقَارَنَةً سَرِيعَةً لِبِنْيَةِ الطَّلَلِ/القَصْرِ فِي القَصِيدَتَيْنِ كَفِيلَةٌ بِنَقْلِ صُورَةٍ صَارِخَةٍ للتَّوَاشُجِ والاتِّسَاقِ بَيْنَهُمَا: مَوْضُوعًا، وَلُغَةً، وَدَلاَلَةً، ... وَالنَّاظِرُ فِيهِمَا لَيْسَ يَغْفَلُ عَنْ هَذَا الحُضُورِ الذِّي يَفْرِضُ ذَاتَهُ بِحَزْمٍ. لَقَدْ نَسَجَ الشَّاعِرُ النَّصَّ الثَّانِي مُسْتَحْضِرًا مِنَ الذَّاكِرَةِ، إِنْ بِوَعْيٍ مُسَيْطِرٍ أَمْ لاَ، مَا أَمْكَنَ مِنْ صُوَرِ التَّوَافُقِ بَيْنَ المشْهَدَيْنِ، فِي عَمَلِيَّةِ قِيَاسٍ لِلغَائِبِ عَلَى الحَاضِرِ، هِيَ بِالتَّأْكِيدِ لَيْسَتْ إِعَادَةَ إِنْتَاجٍ وَحَسْب، بَلْ هِيَ " تَبَادُلُ نُصُوصٍ، تَدَاخُلُ نَصِّيٌّ: فِي فَضَاءِ نَصٍّ عَدِيدُ المَلْفُوظَاتِ، مَأْخُوذَةٌ مِنْ نُصُوصٍ أُخْرَى، تَتَقَاطَعُ وَتُحَيِّدُ بَعْضَهَا بَعْضًا "[1]. لِتَطْفُوَ عَلَى السَّطْحِ الفِكْرَةُ الأَجَدُّ، وَالصُّورَةُ الأَبْقَى أَثَرًا، فَتَنْطَبِعَ مِنَ النَّصِّ الأَوَّلِ فِي ثَنَايَا النَّصِّ الثَّانِي. وَهَذَا الأَمْرُ يَنْسَحِبُ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ أُخْرَى فِي نَصَّيْ البُحْتُرِيِّ نَرَاهَا يَسْتَمِرُّ التَّدَاخُلُ فِيهِمَا فِي غَيْرِ مَوْضُوعِ الطَّلَلِ كَمَا سَيَأْتِي.

3- التَّنَاصُّ الفَنِّيُّ:

" أُلاَمُ عَلَى تَبَعِي لأَبِي تَمَّامٍ! مَا عَمِلْتُ بَيْتًا قَطُّ حَتَّى أُخْطِرَ بِبَالِي شِعْرَهُ.."[2] هَذَا كَانَ جَوَابَ البُحْتُرِيِّ عَلَى مَنْ عَابَ عَلَيْهِ الاحْتِذَاءَ وَاتَّهَمَهُ بِالسَّرِقَ. وَإِنَّمَا هُوَ يُعَبِّرُ بِذَلِكَ عَنْ حَقِيقَةٍ إِبْدَاعِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّ الفَنَّ، أَيَّ فَنٍّ، قَائِمٌ عَلَى التَّفَاعُلِ وَالتَّبَادُلِ والتَّلاَقُحِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ أَخْذاً مُبْتَذَلاً ظَاهِراً. ثُمَّ مَاذَا نَقُولُ حِينَ يَأْتِي الشَّاعِرُ إِلَى نُصُوصِهِ القَدِيمَةِ فَيَبْنِي عَلَيْهَا، وَيَمْتَحُ مِنْهَا؟ إِنَّهَا حَالَةٌ تَعْتَرِي كُلَّ مُبْدِعٍ، فَلَيْسَ مِنْ قَائِلٍ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُقِيمُ

[1]- Le Texte Clos, Julia Kristeva, Langages, (Linguistique et littérature), 3eme Année, N°12, Décembre 1968, Didier/Larousse, P :103." il est une permutation de textes, une inter-textualité : dans l'espace d'un texte plusieurs énoncés, pris à d'autres textes, se croisent et se neutralisent ". Voir aussi : Julia Kristeva, (Introduction) Le texte du roman: approche sémiologique d'une structure discursive, Mouton Publishers, The Hague-Paris-New York, 3eme Ed:1979, P:12.

[2]- الصُّولِيُّ، أَبُو بَكْرٍ محَمَّدُ بْنُ يَحْيَ، أَخْبَارُ البُحْتُرِيِّ، تَحْ: صَالِحٌ الأَشْتَرُ، دَارُ الفِكْرِ، دِمَشْقُ، ط2، 1964م، صص59، 60.

بِنَاءَهُ مِنْ غَيْرِ أُسِّ! وَهُنَا يُصْبُحُ التَّلْوِينُ، وَالحِذْقُ فِي مُدَاعَبَةِ المعَانِي حَتَّى لَتَبْدُوَ وَكَأَنَّهَا بِنْتُ يَوْمِهَا هُوَ المقْيَاسَ الذِّي عَلَيْهِ تَنْهَضُ أَحْكَامُنَا لِهَذَا أَوْعَلَيْهِ.

إِنَّ سَفَرَ الذَّاكِرَةِ إِلَى تُخُومِ المعْنَى الأَوَّلِ حَرَكَةٌ تَتِمُّ فِي جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْهَا بِغَيْرِ إِرَادَةٍ مِنَّا، إِنَّهَا رِحْلَةٌ عَكْسِيَّةٌ، تَنْطَلِقُ إِلَى الوَرَاءِ، وَهُنَا لاَ شَيْءَ يَسْتَطِيعُ مَنْعَ وُقُوعِ المَعْنَى عَلَى المعْنَى! وَالأَثَرَ عَلَى الأَثَرِ، فَفِي تِلْكَ المتَاهَاتِ العَمِيقَةِ لِلذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ لَيْسَ سَهْلاً تَخَطِّي بَعْضِ الحَوَاجِزِ، وَلاَ القَفْزُ عَلَيْهَا دُونَ النَّهْلِ مِنْهَا عَلَى نَحْوٍ مِنَ الأَنْحَاءِ، فَالنُّصُوصُ لاَ تَنْبُعُ مِنْ أُخْرَى سَابِقَةٍ فَحَسْبَ، بَلْ لَعَلَّ انْبِثَاقَهَا هَذَا هُوَ" الصُّورَةُ الوَحِيدَةُ لأَصْلِ الشِّعْرِ"[1].

أ- صُورَةُ المَوْتِ:

" وَلَقَدْ تُذْكِرُ الخُطُوبُ وَتُنْسِي "، فَتَحْمِلُ الشَّاعِرَ عَلَى هَذَا السَّفَرِ فِي المكَانِ وَالزَّمَانِ، هَكَذَا " أَذْكَرَتِ الهُمُومُ " البُحْتُرِيَّ آلَ سَاسَانَ فَوَجَدَ نَفْسَهُ فِي سَاحَةِ الإِيوَانِ، مُجَرَّدًا مِنْ صُحْبَةِ المتَوَكِّلِ وَجُنْدِهِ، مُجَرَّدًا مِنْ كُلِّ لَقَبٍ، فِي وَحْشَةٍ حَالِيَّةٍ (نَفْسٌ مَهْزُوزَةٌ)، وَمَحَلِّيَّةٌ (المكَانُ مُقْفِرٌ)، فَانْجَذَبَ إِلَى مَا بَقِيَ مِنْ أَمَارَاتِ الشُّمُوخِ وَالأَنَفَةِ فِي القَصْرِ، اِلْتَفَتَ إِلَى صُورَةِ مَعْرَكَةِ أَنْطَاكِيَّةَ التِّي لاَ تَزَالَ حِينَذَاكَ تُزَيِّنُ الجِدَارَ،كَانَتْ عَيْنُ الفَنَّانِ تَعْمَلُ، وَنَفْسُهُ تَعْتَمِلُ، لِتُخْرِجَ لَنَا خَيَالاَتِ الشَّاعِرِ هَذِهِ الرَّائِعَةَ فِي الوَصْفِ، بَلْ أَنَّ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ يَدُ الفَنَّانِ الرَّسَّامِ، وَهُوَ تَخْلِيدُ الصُّورَةِ وَالانْتِصَارِ، لأَنَّ أَيْدِي الزَّمَنِ كَانَتْ أَقْوَى، فَلاَ نَجِدُ اليَوْمَ لِهَذِهِ الرَّسْمَةِ أَثَرًا، هَاهِيَ ذِي القَصِيدَةُ تَسْتَمِرُّ قُرُونًا لِتَنقُلَ إِلَيْنَا بِإِخْلاَصٍ، وَبِتَفَاصِيلَ مُذْهِلَةٍ مَا عَمِلَتْهُ الأَصْبَاغُ عَلَى الحَائِطِ، فَزَالَتْ هَذِهِ، وَخَلَدَتْ أَصْبَاغُ اللُّغَةِ!

وَقُدْرَةُ البُحْتُرِيِّ عَلَى التَّصْوِيرِ بِالكَلِمَاتِ، وَوَصْفِ المرْئِيَّاتِ،لاَ يُدَاخِلُنَا إِلَيْهَا رَيْبٌ بِإِجْمَاعٍ مِنَ القُدَمَاءِ وَالمحْدَثِينَ. لَقَدْ بَعَثَ "الوَلِيدُ" الحَيَاةَ فِي الجِدَارِيَّةِ، وَفِي الأَجْسَادِ الحَجَرِيَّةِ البَارِدَةِ المَاثِلَةِ فِيهَا، وَتَرَكَنَا نُصَدِّقُ أَنْ نَدَعَ أَنَامِلَنَا، مِثْلَمَا، أَنَامِلُهُ، تَتَتَبَّعُ الصُّورَةَ وَقَدْ أَغْرَتْهُ بِدِقَّتِهَا وَجَمَالِهَا:

[1]- رُوبَرْتْ شُولْزْ، السِّيمْيَاءُ وَالتَّأْوِيلُ، تَرْ: سَعِيدٌ الغَانِمِيُّ، المؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط1، 1994م، ص89.

يَغْتَلِي فِيهِمُ ارْتِيَابِي حَتَّى *** تَتَقَرَّاهُمْ يَدَايَ بِلَمْسِ.

فَالصُّورَةُ المَرْسُومَةُ بِالكَلِمَاتِ تَتَقَاطَعُ إِلَى حَدِّ التَّطَابُقِ مَعَ تِلْكَ المَرْسُومَةِ بِالأَلْوَانِ، ذَلِكَ هُوَ الذِّي جَعَلَ القُدَمَاءَ يُشِيدُونَ بِهَذَا العَمَلِ الفَنِّيّ الشِّعْرِيّ،لأَنَّهُمْ كَانُوا أَقْرَبَ مِنَّا إِلَى الإِيوَانِ، وَقَدِ اطَّلَعُوا عَلَى صُورَةِ المعْرَكَةِ بِمُشَاهَدَةِ عَيَانٍ.

لَقَدْ مَحَا الزَّمَنُ آثَارَ الجِّدَارِيَّةِ تِلْكَ، وَعَفَتْ أَلْوَانُ رَسَامِهَا، لَكِنَّ أَصْبَاغَ البُحْتُرِيّ خَالِدَةٌ رَغْمَ العَوَادِي وَالسِّنِينِ، تُذَكِّرُنَا كُلُّ قِرَاءَةٍ بِأَنَّ شَيْئًا مَا كَانَ هُنَا ذَاتَ يَوْمٍ، وَلَيْسَ غَيْرُ قَصِيدَةِ أَبِي عُبَادَةَ تَشْهَدُ عَلَيْهِ،كَمَا شَهِدَ هُوَ (الإِيوَانُ) عَلَى أَهْلِهِ الرَّاحِلِينَ:

وَهُوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ *** لاَ يُشَابُ البَيَانُ فِيهِمْ بِلَبْسِ.

غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ *** يَكُ بَانِيهِ فِي المُلُوكِ بِنَكْسِ.

إِنَّ تَنَاصَّ الشَّاعِرِ مَعَ الرَّسَّامِ فِي هَذِهِ اللَّوْحَةِ، لَوْنًا وَحَرَكَةً، وَصِدْقَ تَعْبِيرٍ بَلَغَ دَرَجَةٍ جَعَلَتْنَا، وَنَحْنُ بَعِيدُونَ عَنْهُ هَذِهِ القُرُونَ، " نَرْتَابُ " وَيَغْتَلِي فِي دَوَاخِلِنَا الانْبِهَارُ، لأَنَّ حَقِيقَةَ التَّجْرِبَةِ الشِّعْرِيَّةِ هِيَ التِّي بَعَثَتْ حَرَارَةَ الأَنْفَاسِ فِي الأَطْلاَلِ الوَاهِيَةِ، وَهِيَ نَفْسُهَا التِّي تَجْعَلُنَا نَقُولُ الآنَ بِأَنَّ صُورَةَ مَعْرَكَةِ أَنْطَاكِيَّةَ إِنَّمَا كَانَتْ صُورَةً مَادِّيَّةً مَاثِلَةً لِلعَيَانِ (تَصِفُ العَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَاءَ)، لِلصُّورَةِ الغَائِرَةِ فِي عُمْقِ الذَّاكِرَةِ، صُورَةِ المتَوَكِّلِ الخَلِيفَةِ المتَمَيِّزِ، الذِّي غَابَ عَنِ العَيْنِ فَلَمْ تَكُنْ إِلاَّ هَذِهِ الصُّورَةُ بَاعِثًا عَلَى إِحْيَائِهَا، أَوْ إِبْدَالِ المجَرَّدِ بِالمرْئِيّ المحْسُوسِ:

فَأَيْنَ الحِجَابُ الصَّعْبُ حَيْثُ تَمَنَّعَتْ *** بِهَيْبَتِهَا أَبْوَابُهُ وَ مَقَاصِرُهُ؟

وَ أَيْنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ *** تَنُوبُ، وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهُ؟

تَخَفَّى لَهُ مُغْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ *** وَ أَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجَاهِرُهُ.

فَمَا قَاتَلَتْ عَنْهُ المنُونَ جُنُودُهُ *** وَ لاَ دَافَعَتْ أَمْلاَكُهُ وَذَخَائِرُهُ.

..... *** .....

وَمُغْتَصَبٍ لِلْقَتْلِ لَمْ يُخْشَ رَهْطُهُ *** وَ لمْ يُحْتَشَمْ أَسْبَابُهُ وَأَوَاصِرُهُ.

صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ حُشَاشَةً *** يَجُودُ بِهَا وَالموْتُ حُمْرٌ أَظَافِرُهُ.

أُدَافِعُ عَنْهُ بِاليَدَيْنِ، وَلَمْ يَكُنْ *** لِيُثْنِي الأَعَادِي أَعْزَلُ اللَّيْلِ حَاسِرُهُ.

وَلَوْ كَانَ سَيْفِي سَاعَةَ القَتْلِ فِي يَدِي*** دَرَى القَاتِلُ العَجْلاَنُ كَيْفَ أُسَاوِرُهُ.

هَذِهِ هِيَ صُورَةُ المَاضِي حَيْثُ يُقْتَلُ المتَوَكِّلُ فِي حُضُورِ الشَّاعِرِ، وَيَقَعُ فَرِيسَةً سَهْلَةً بِيَدِ أَعْدَائِهِ، وَقَدْ غَفَلَ حَرَسُهُ عَنْهُ، وَسَارَتْ إِلَيْهِ المنُونُ فِي غِيَابٍ مْنْ جُنُودِهِ، هَذَا هُوَ عَمِيدُ النَّاسِ وَنَاهِيهِمْ وَآمِرُهُمْ يَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ قَاتِلُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ،وعَلَى حِينِ غَفْلَةٍ. وَلأَنَّهَا الصُّورَةُ المزْعِجَةُ التِّي نُقِشَتْ فِي الذَّاكِرَةِ، نَرَى كَيْفَ أَبْدَعَ البُحْتُرِيُّ فِي " قَلْبِ " مُكَوِّنَاتِهَا مُسْتَغِلاًّ مَا يَرَاهُ أَمَامَهُ فِي الإِيوَانِ، فَالمَلِكُ هُنَا حَاضِرٌ مُنْتَبِهٌ يُزْجِي صُفُوفَ جُنْدِهِ الذِّينَ يَتَقَاتَلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَيْسَ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ كَمَا هُنَاكَ!

وَالمنَايَا مَوَاثِلٌ، وَأَنُوشِرْ*** وَانَ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدِّرَفْسِ.

فِي اخْضِرَارٍ مِنَ اللِّبَاسِ عَلَى أَصْـ*** فَرَيَخْتَالُ فِي صَبِيغَةِ وَرْسِ.

وَعِرَاكُ الرِّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ *** فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْمَاضِ جَرْسِ.

ب- صُورَةُ الخَمْرَةِ:

وَنَأْتِي إِلَى الخَمْرَةِ الحَاضِرَةِ فِي القَصِيدَتَيْنِ، لَكِنْ فِي طَبِيعَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، فَفِي المَرْثِيَّةِ يُقْسِمُ أَلاَّ يَشْرَبَهَا ثَانِيَةً لارْتِبَاطِهَا بِجَرِيمَةِ القَتْلِ تِلْكَ، فَإِنَّ انْغِمَاسَ المتَوَكِّلِ وَنُدَمَاءَه فِي الشُّرْبُ هُوَ مَا سَهَّلَ عَلَى المجْرِمِينَ فِعْلَتَهُمْ!

حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى *** دَمًا بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الأَرْضِ مَائِرُهُ.

وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ بَعْدَ هَذِهِ الحَادِثَةِ بِسَنَوَاتٍ فِي قَصِيدَةٍ ثَالِثَةٍ[1]:

وَ إِنِّي هَجَرْتُ الرَّاحَ حَوْلاً مُجَرِّمًا *** لَهُ، وَشُهُودِي بِالذِّي قُلْتُ شُهَّدُ.

[1]- الدّيوان، ص517.

وَفِي أُخْرَى يَقُولُ[1]:

وَكَيْفَ تَعَاطِي اللَّهْوِ وَالرَّأْسُ مُخْلِسٌ *** مَشِيبًا وَشُرْبُ الرَّاحِ مِنْ بَعْدِ جَعْفَرِ.

وَلَكِنَّهُ فِي السِّينِيَّةِ، وَبَعْدَ أَنْ هَيَّجَتْ صُورَةُ الجِرْمَازِ مَوَاجِعَهُ وَحَنِينَهُ إِلَى مُجَالَسَةِ المُتَوَكِّلِ انْتَقَلَ مِنْهَا مُبَاشَرَةً إِلَى الخَمْرَةِ، يَصِفُهَا وَيَسْتَدْعِيهَا:

قَدْ سَقَانِي وَلَمْ يُصَرِّدْ "أَبُو الغَوْ *** ثِ" عَلَى العَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خِلْسِ.

مِنْ مُدَامٍ تَظُنُّهَا وَهْيَ نَجْمٌ *** ضَوَّأَ اللَّيْلَ أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسِ.

وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُرُورًا *** وَارْتِيَاحًا لِلشَّارِبِ المُتَحَسِّي.

أُفْرِغَتْ فِي الزُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ *** فَهْيَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسِ.

وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ " كِسْرَى أَبَرْوِيـ *** ـزَ" مُعَاطِيَّ، وَ"البَلَهْبَذَّ" أُنْسِي.

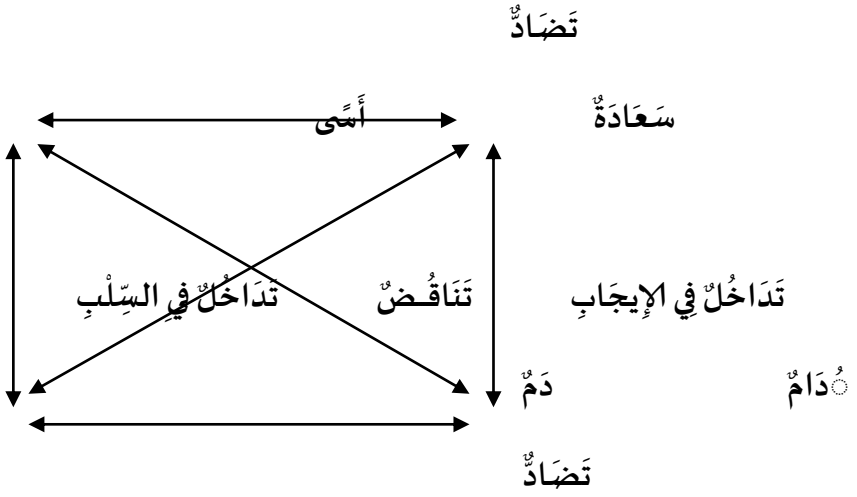

ج- الوَزْنُ:

إِنَّ " الإِيقَاعَ تَابِعٌ لِلتَّجْرِبَةِ الَّتِي يَخْضَعُ لَهَا الشَّاعِرُ أَثْنَاءَ صِيَاغَتِهِ شِعْرَهُ، فَقَدْ يَكُونُ الإِيقَاعُ هَادِئًا مُطْمَئِنًّا مُوحِيًا بِالسَّلاَمَةِ، أَوِ الحُزْنِ وَالكَآبَةِ. وَقَدْ يَكُونُ مُتَعَثِّرًا حَادًّا يُوحِي بِاضْطِرَابِ النَّفْسِ "[2]، فَاخْتِيَارُ

[1]- نفسه، ص1062.

[2]- محمَّدُ مَفْتَاحُ، فِي سِيمْيَاءِ الشِّعْرِ القَدِيمِ - دِرَاسَةٌ نَظَرِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ، دَارُ الثَّقَافَةِ، المَغْرِبُ، ط1، 1989م، ص38.

الوَزْنِ نَعُدُّهُ هُنَا عَمَلاً وَاعِيًا مَقْصُودًا، يَهْدِفُ البُحْتُرِيُّ مِنْ خِلاَلِهِ بُلُوغَ غَايَةٍ دَلاَلِيَّةٍ، وَلَيْسَ فَقَطْ تَوْفِيرَ شَكْلٍ إِيقَاعِيٍّ خَارِجِيٍّ يُؤَطِّرُ القَصِيدَةَ فِي مُتَوَالِيَاتِ صَوْتْ/نَغَمِيَّةٍ بِمَعْزِلٍ عَنِ الخِطَابِ الذِّي تُبَشِّرُ بِهِ، " إِنَّ الوَزْنَ إِذَنْ أَوْ الجَانِبَ المُوسِيقِيَّ بِكُلِّ مُكَوِّنَاتِهِ لَيْسَ مُجَرَّدَ إِضَافَةٍ قَالَبٍ لِلخِطَابِ مِنْ خَارِجِهِ يُصَبُّ فِيهِ فَيَصِيرُ شِعْرًا، وَإِنَّمَا هِيَ إِضَافَةٌ تَرْتَبِطُ بِهِ بِعِدَّةِ وَشَائِجَ أَهَمُّهَا تَأْثِيرُهَا عَلَى القِيمَةِ الدَّلاَلِيَّةِ لَهُ، وَتُسَاهِمُ مُسَاهَمَةً فَعَّالَةً فِي صُنْعِ المِيزَةِ الشِّعْرِيَّةِ لِلْخِطَابِ وَإِنْ كَانَتْ لاَ تَنْحَصِرُ فِيهَا كَمَا رَسَخَ فِي ذِهْنِ البَعْضِ..."[1].

وَمِنْ ثَمَّ، عَلَيْنَا، وَنَحْنُ نَبْحَثُ فِي دَوَاعِي الْتِقَاءِ الوَزْنِ بِالغَرَضِ، وَمَظَاهِرِ الملاَءَمَةِ بَيْنَهُمَا "أَنْ نُرْجِعَهَا إِلَى مُوسِيقَاهُ البَاطِنِيَّةِ التِّي هِيَ وَحْدَهَا تَدْفَعُهُ لِنَظْمِ مَا يُرِيدُ نَظْمَهُ مِنَ الأَغْرَاضِ عَلَى البَحْرِ الذِّي يَرَاهُ مُنَاسِبًا لَهُ وَلِذَلِكَ نُحِسُّ أَنَّ أَوْزَانَهُ تَحْمِلُ مُوسِيقَى دَاخِلِيَّةً زِيَادَةً عَلَى مُوسِيقَاهُ الأَصْلِيَّةِ "[2]، إِذِ البَحْرُ، كَمَا يَرَى ابْنُ الشِّيخِ "يُوَفِّرُ لِلْمَعْنَى تَنْسِيقًا صَوْتِيًّا يَسْنُدُ الدَّلاَلَةَ "[3] وَيَدْفَعُ فِي اتِّجَاهَاتٍ عَدِيدَةٍ لإِدْرَاكِهَا، قَدْ تَكُونُ نِتَاجَ ذَاكَ التَّبَايُنِ والانْزِيَاحِ الإِيقَاعِيِّ قَبْلَ المَعْنَوِيِّ.

هَذَا يَجْعَلُ عَمَلِيَّةَ اخْتِيَارِ الوَزْنِ أَبْعَدَ مِنْ أَنْ تَكُونَ مُهِمَّةً مِيكَانِيكِيَّةً آلِيَّةً، ارْتَسَمَتْ فِي أَذْهَانِ الشُّعَرَاءِ، فَمَارَسُوهَا فِي مَعْزِلٍ عَنْ مُتَطَلَّبَاتِ الرَّاهِنِ الوِجْدَانِيِّ الذِّي اسْتَدْعَى القَوْلَ وَحَرَّكَهُ، " فَمَسْأَلَةُ اخْتِيَارِ الإِيقَاعِ، وَهُوَ مُشْكِلٌ هَامٌّ فِي تَرْكِيبَةِ الخِطَابِ الشِّعْرِيِّ لاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْضَعَ لاخْتِيَارٍ خَارِجِيٍّ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلِّدًا، حَسَبَ رَأْيِنَا، عَنِ اللَّحْظَةِ التِّي نَكْتُبُ فِيهَا القَصِيدَةَ، وَعَنْ مَدَى نَتْقِ قَرِيحَةِ هَذَا الشَّاعِرِ وَعَظَمَةِ عَبْقَرِيَّتِهِ فِي التَّفَرُّدِ وَالابْتِكَارِ"[4].

[1]- محمَّدُ عَبْدُ العَظِيمِ، فِي مَاهِيَّةِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ - إِطْلاَلَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ مِنْ نَافِذَةِ التُّرَاثِ النَّقْدِيِّ، المؤَسَّسَةُ الجَامِعِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط1، 1994م، ص81.

[2]- أَحمَدُ مَحْمُودُ خَلِيلُ، فِي النَّقْدِ الجمَالِيِّ- رُؤْيَةٌ فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ، دَارُ الفِكْرِ المعَاصِرِ، لُبْنَانُ، دَارُ الفِكْرِ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، دِمَشْقُ، سُورِيَا، د.ط، 1996م، ص340.

[3]- جَمَالُ الدِّينِ بْنُ الشِّيخِ، فِي الشِّعْرِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، ص269.

[4]- عَبْدُ المَلِكِ مُرْتَاضُ، الأَدَبُ الجزَائِرِيُّ القَدِيمُ - دِرَاسَةٌ فِي الجُذُورِ، دَارُ هُومَةُ، الجزَائِرِ، د.ط، 2000م، ص206.

وَمَسْأَلَةُ اخْتِيَارِ الوَزْنِ هَذِهِ قَدِيمَةٌ، وَقَدْ نَظَرَ فِيهَا، وَنَظَّرَ لَهَا فَلاَسِفَتُنَا لَمَّا عَرَضُوا لِعَلاَقَةِ الأَوْزَانِ بِالأَغْرَاضِ، وَ أَقْوَالُهُمْ فِيهَا كَثِيرَةٌ مُتَشَعِّبَةٌ، نَسُوقُ مِنْهَا هُنَا رَأْيَ ابْنِ رُشْدٍ " الذِّي يَرَى أَنَّ مِنْ تَمَامِ الوَزْنِ: أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلغَرَضِ، فَرُبَّ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلاَ يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ"[1].

تَفْرِضُ مَسْأَلَةُ اخْتِيَارِ الوَزْنِ، أَوْ لِنَقُلْ:اسْتِدْعَاءِ الوَزْنِ المَنَاسِبِ لِلنَّصِّ، حُضُورَهَا عَلَى الدَّوَامِ، أَهُنَاكَ اخْتِيَارٌ أَصْلاً أَمْ أَنَّ الوَزْنَ مُقْحَمٌ عَلَى الشَّاعِرِ وَنَصِّهِ؟! وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَمَا الذِّي يَفْرِضُهُ وكَيْفَ يَفْرِضُهُ؟! فَابْنُ العَمِيدِ، عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، يُطَالِبُ الشَّاعِرَ بِالتَّوَقُّفِ عِنْدَ صِيَاغَتِهِ قَصِيدَتَهُ لِيَتَأَمَّلَ " الغَرَضَ الذِّي قَصَدَهُ، وَالمعْنَى الذِّي اعْتَمَدَهُ، وَيَنْظُرَ فِي أَيِّ الأَوْزَانِ يَكُونُ أَحْسَنَ اسْتِمْرَارًا، وَمَعَ أَيِّ القَوَافِي يَكُونُ أَحْمَدَ اطِّرَادًا، فَيَرْكَبُ مَرْكَبًا لاَ يَخْشَى انْقِطَاعَهُ بِهِ وَالْتِيَاثَهُ عَلَيْهِ "[2].

اخْتِيَارُ الوَزْنِ، إِذَنْ، لَيْسَ قَضِيَّةً اعْتِبَاطِيَّةً، بَلْ هِيَ تَخْضَعُ لِعَمَلِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ تُشَكِّلُ حَرَكِيَّةَ الإِبْدَاعِ فِي جُمْلَتِهَا، فَ" الشَّاعِرُ يَخْتَارُ وَزْنًا حِينَمَا تَتَدَفَّقُ فِيهِ اللُّغَةُ التِّي تُجَسِّدُ الحَرَكَةَ، فَهُوَ لاَ يَخْتَارُ الطَّوِيلَ، بَلْ إِنَّ كَلِمَاتِهِ هِيَ التِّي تَرْسُمُهُ لَهُ، وَ إِيقَاعُهَا هُوَ الذِّي يُحَدِّدُهُ. لاَ يَنْطَلِقُ الشَّاعِرُ مِنْ خُطَاطَةٍ نَظَرِيَّةٍ، ثَابِتَةٍ سَلَفًا، وَ إِنَّمَا يَنْطَلِقُ مِنْ مُتَطَلَّبٍ عَامٍّ وَهُوَ مُتَطَلَّبُ تَنْسِيقِ خِطَابِهِ وِفْقَ تَأْلِيفٍ عَرُوضِيٍّ يُؤَصِّلُ شِعْرَهُ، وَبِهَذَا يَكُونُ شَاعِرًا بِالطَّبْعِ "[3].

أَمَّا أَبُو عُبَادَةَ فَاخْتَارَ الطَّوِيلَ بَحْرًا لِلمَرْثِيَّةِ، لأَنَّهُ يُوَافِقُ حَالَةَ الغَضَبِ وَالأَسَى الفَاجِعِ الذِّي كَانَ عَلَيْهَا، وَلَمْ يُطِقْ عَلَى إِخْرَاجِهَا صَبْرًا، فَخَرَجَتِ الكَلِمَاتُ حَرَّى، مُوحِيَّةً بِالحُرْقَةِ وَالفُرْقَةِ، وَ" الطَّوِيلُ بَحْرٌ خِضَمٌّ يَسْتَوْعِبُ مَا لاَ يَسْتَوْعِبُ غَيْرُهُ مِنَ المعَانِي، وَيَتَّسِعُ لِلفَخْرِ وَالحمَاسَةِ، وَالتَّشَابِيهِ وَالاسْتِعَارَاتِ، وَسَرْدِ

[1]- الأَخْضَرُ جَمْعِي، نَظَرِيَّةُ الشِّعرِ عِنْدَ الفَلاَسِفَةِ الإِسْلاَمِيِّينَ، دِيْوَانُ المطْبُوعَاتِ الجَامِعِيَّةِ، د.ط، جَانْفِي1999م، ص187.

[2]- مُصْطَفَى أَبُو كَرِيشَةَ، أُصُولُ النَّقْدِ الأَدَبِيّ، مَكْتَبَةُ لُبْنَانَ نَاشِرُونَ، بَيْرُوتُ، ط1، 1996م، ص389.

[3]- جَمَالُ الدِّينِ بْنُ الشَّيخِ، فِي الشِّعْرِيَّةُ العَرَبِيَّةُ، ص279.

الحَوَادِثِ، وَتَدْوِينِ الأَخْبَارِ، وَوَصْفِ الأَحْوَالِ "[1]، فَهُوَ أَقْرَبُ لِمَا يَعِيشُهُ الشَّاعِرُ مِنْ أَهْوَالِ الزَّمَنِ، حَتَّى قَالَ مَا قَالَ دُونَ خَشْيَةٍ مِنَ العَوَاقِبِ بَعْدَ أَنْ أَذْهَلَتْهُ المَصَائِبُ[2].

وَالذِّي نَرَاهُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ دَأْبِ البُحْتُرِيِّ فِي عَمَلِهِ الشِّعْرَ اخْتِيَارُ الأَوْزَانِ، وَالنَّظَرُ فِي الأَغْرَاضِ، وَالتَّمَاهِي مَعَ النَّفْسِ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْلُغَ الغَايَةَ التِّي لاَ تَتَحَقَّقُ إِنِ اخْتَلَّتْ بَعْضُ مُقَوِّمَاتِهِ. إِنَّ الحَالَةَ النَّفْسِيَّةَ لِلشَّاعِرِ، وَمَا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ نَكَسَاتٍ مُتَرَادِفَةٍ، وَأَجْوَاءَ المَأْسَاةِ المحِيطَةِ بِهِ كَانَتْ عَامِلاً حَاسِمًا فِي تَفْضِيلِ التَّعَامُلِ مَعَ الخَفِيفِ فِي السِّينِيَّةِ، فَالخِفَّةُ ضِدُّ ثِقَلِ الخُطُوبِ، وَجِدِيَّةِ مُجَابَهَتِهَا، وَالطَّوِيلُ كَانَ، حَتْمًا، سيُعِيدُهُ إِلَى مَا هُوَ هَارِبٌ مِنْهُ، يُحِيلُهُ إِلَى الذِّي يُلاَحِقُهُ!

ثُمَّ اخْتَارَ السِّينَ المَكْسُورَةَ لِتَكُونَ أَفْصَحَ عَنْ آلاَمِ الحَشَى، وَتَضَعْضُعِ الذَّاتِ وَ انْكِسَارِهَا، وَتَنْفِيسًا لَهَا بِالزَّفَرَاتِ، لِمَا فِيهَا مِنْ هَمْسٍ وَإِخْفَاءٍ لِلمَوَاجِعِ وَهُوَ يُحَاوِلُ التَّمَاسُكَ أَمَامَ زَعْزَعَةِ الدَّهْرِ! فَانْكَفَأَ عَلَى نَفْسِهِ يُحَدِّثُهَا وَيَبُثُّهَا أَشْجَانَهُ. أَمَّا فِي المرْثِيَّةِ فَكَانَتِ الرَّاءُ رَوِيًّا مَضْمُومًا، وَهُوَ حَرْفٌ فِيهِ مِنَ القُوَّةِ مَا يَحْتَاجُهُ الشَّاعِرُ لِرَدِّ القَتَلَةِ وَطَرْدِ وَجَعِ القَتِيلِ المغْدُورِ، وَأَسْبَقَهَا بِأَلِفِ مَدٍّ تُوَائِمُ رَغْبَتَهُ فِي التَّوَثُّبِ لِلانْتِقَامِ، وَ انْتَهَى إِلَى هَاءِ سَكْتٍ تُصَوِّرُ وَقْعَ السُّيُوفِ، وَصَوْتَ الطَّاعِنِ وَالمطْعُونِ فِي آنٍ.

وَمَعَ هَذَا الاخْتِلاَفِ فِي الموسِيقَى الخَارِجِيَّةِ لِلنَّصَّيْنِ، فَإِنَّهُمَا لاَ يَفْتَرِقَانِ فِي مُوسِيقَاهُمَا الدَّاخِلِيَّةِ، وَيَتَآلَفَانِ فِي الأَحْزَانِ وَالآلاَمِ، وَصُوَرِ المعَانَاةِ مِنْ دَوْرَةِ الأَيَّامِ، مَعَ مَا فِي المرْثِيَّةِ مِنْ تَسَرُّعٍ وَتَهَوُّرٍ، وَمَا فِي السِّينِيَّةِ مِنْ أَنَاةٍ وَتَأَمُّلٍ! إِنَّ بَوْحَ النَّفْسِ المضْطَرِمِ فِي النَّصَّيْنِ، يَكَادُ يَنْطِقُ بِالتَّشَاكُلِ عَلَى مُسْتَوَيَاتٍ عِدَّةٍ لَوْلاَ المصِيبَةُ الكُبْرَى التِّي أَخْرَجَتِ النَّصَّ الأَوَّلَ مَشْحُونًا بِطَاقَاتِ الرَّغْبَةِ الجَامِحَةِ فِي الانْتِقَامِ، وَبِأَنْ تَكُونَ السُّيُوفِ هِيَ الفَاصِلَةَ بَيْنَ الخُصُومِ، فَانْتَشَرَتْ صُورَةُ الدَّمِ وَوَزْنُ القُوَّةِ الفَاجِعَةِ فِيهِ، فِي حِينِ أَنَّ النَّصَّ الثَّانِي انْكَفَأَ

[1]- سُلَيْمَانُ البُسْتَانِيُّ، مُقَدِّمَةُ الإِلْيَاذَةِ، سِلْسِلَةُ الرَّوَائِعِ، المكْتَبَةُ الشَّرْقِيَّةُ، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط4، 1981م، ص67.
[2]- الدِّيْوَانُ، الهَامِشُ، ص1045.

عَلَى نَفْسِهِ يُعَلِّمُهَا الصَّبْرَ أَمَامَ الشَّدَائِدِ، وَالاعْتِبَارَ مِنَ المِحَنِ، ذَلِكَ الذِّي جَعَلَ الوَزْنَ يَنْسَابُ بِتِلْقَائِيَّةٍ أَكْبَرَ مَعَ جُرُوحِ الذَّاتِ المُنْكَسِرَةِ فِي غَيْرِمَا دِمَاءٍ، وَضَجِيجِ قَرْعٍ وَتَخَبُّطٍ.

ح- مَعَ " كَأَنَّ ":

بَعْدَ اسْتِفْهَامِهِ عَنْ سِرِّ كَلَفِ المُعَلَّقَاتِيِّينَ بِحَرْفِ التَّشْبِيهِ "كَأَنَّ" دُونَ غَيْرِهِ، يَطْرَحُ عَبْدُ المَلِكِ مُرْتَاضْ فَرَضِيَّةَ الإِجَابَةِ الآتِيَةِ فَيَقُولُ: " لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى جَمَالِهَا المُتَمَثِّلِ فِي رَصَانَةِ إِيقَاعِهِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، مُرَكَّبَةٌ مِنْ عُنْصُرَيْنِ اثْنَيْنِ: أَدَاةُ التَّشْبِيهِ(الكَافُ)، وَأَدَاةُ التَّوْكِيدِ(أَنَّ): فَكَأَنَّ، كَأَنَّ: لَيْسَتْ لِلتَّشْبِيهِ فَحَسْبَ، وَلاَ أَدَاةً لِلتَّوْكِيدِ فَحَسْبَ، وَلَكِنَّهَا إِيَّاهُمَا جَمِيعًا "[1].

وَيُضِيفُ فِي مَكَانٍ آخَرَ بِأَنَّ هَذِهِ الأَدَاةَ لَمْ يَكُنْ " تَكْرَارُهَا لَدَيْهِمْ إِلاَّ تَعْزِيزًا لِمَظْهَرِ جَمَالِيَّةِ الحَيِّزِ الشِّعْرِيِّ، وَحِرْصِ المعَلَّقَاتِيِّينَ عَلَى الإِصْرَارِ عَلَى وَصْفِهِ بِهَذِهِ الجَمَالِيَّةِ، وَادِّعَائِهَا فِيهِ، وَإِثْبَاتِهَا لَهُ، وَوَقْفِهَا عَلَيْهِ... وَرُبَّمَا كَانَت البِنْيَةُ الصَّوْتِيَّةُ لأَدَاةِ كَأَنَّ هِيَ التِّي حَمَلَتِ المعَلَّقَاتِيِّينَ عَلَى الإِكْثَارِ مِن اسْتِعْمَالِهَا دُونَ سَوَائِهَا مِنْ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ... "[2].

يَصْطَنِعُ البُحْتُرِيُّ هَذَا الحَرْفَ ثَمَانِيَ مَرَّاتٍ فِي السِّينِيَّةِ، خَمْسٌ مِنْهَا جَاءَتْ مُتَوَالِيَةَ التَّرْتِيبِ، وَالبَاقِيَةُ تَوَزَّعَتْ عَلَى الأَبْيَاتِ(35/19/5)، أَمَّا فِي المَرْثِيَّةِ فَتَرَدَّدَتْ " كَأَنَّ " ثَلاَثَ مَرَّاتٍ أَيْضًا فِي الأَبْيَاتِ(31/10/2):

2- كَأَنَّ الصَّبَا تُوفِي نُذُورًا إِذَا انْبَرَتْ تُرَاوِحُهُ أَذْيَالُهَا وَتُبَاكِرُهُ.

أ انْقِلاَبُ وَتَغَيُّرُ أَحْوَالِ الزَّمَنِ لِغَيْرِ صَالِحِ الشَّاعِرِ

5- وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُو لاً هَوَاهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ.

10- كأنْ لم تَبِت فيه الخلافة طلقةً بشاشتها والملك يشرق زاهره.

[1]- عَبْدُ المَلِكِ مُرْتَاضُ، السَّبْعُ المعَلَّقَاتُ، إِتِّحَادُ الكُتَّابِ العَرَبِ، دِمَشْقُ، د.ط، 1998م، ص195.

[2]- نفسه، ص199.

ب الزَّمَنُ يُغَيِّرُ أَحْوَالَ القَصْرِ وَالإِيوَانِ إِلَى الأَسْوَإِ

19- فَكَأَنَّ الجِرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الأُنْـ ـسِ وَإِخْلاَقِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ.

31- كَأَنَّكُمْ لمَ تَعْلَمُوا مَنْ وَلِيُّهُ وَنَاعِيهِ تَحْتَ المُرْهَفَاتِ وَثَائِرُهُ.

ج يَحْمِي الوَلِيُّ تُرَاثَ الخَلِيفَةِ كَمَا يحْمِي الجَبَلُ الأَرْعَنُ الإِيوَانَ

35- وَكَأَنَّ الإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْـ ـعَةِ جَوْبٌ فِي جَنْبِ أَرْعَنَ جِلْسِ.

د إِشْـرَاقُ المَاضِي

45- فَكَأَنِّي أَرَى المَرَاتِبَ وَالقَوْ مَ إِذَا مَا بَلَغَتْ آخِرَ حِسِّي.

46- وَكَأَنَّ الوُفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى مِنْ وُقُوفٍ خَلْفَ الزِّحَامِ وَخُنْسِ.

47- وَكَأَنَّ القِيَانَ وَسْطَ المَقَاصِيـ ـرِ يُرَجِّعْنَ بَيْنَ حُوٍّ وَلُعْسِ.

48- وَكَأَنَّ اللِّقَاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْـ ـسِ، وَوُشْكَ الفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ.

49- وَكَأَنَّ الذِّي يُرِيدُ اتِّبَاعًا طَامِعٌ فِي لحُوقِهِمْ صُبْحَ خُمْسِ.

وَنَقِفُ مِنْ خِلاَلِ هَذِهِ الخُطَاطَةِ عَلَى تَشَاكُلٍ بَيْنَ نَصَّيْ " المَرْثِيَّةِ " وَ" السِّينِيَّةِ " مِنْ حَيْثُ تَوْظِيفُ أَدَاةِ التَّشْبِيهِ(كَأَنَّ)، وَيْمَتَدُّ هَذَا التَّشَابُهُ إِلَى مُسْتَوَى الدَّلاَلَةِ بَدْءً مِنْ تَغَيُّرِ أَحْوَالِ الزَّمَنِ(أ)، وَتَغَيُّرِ أَحْوَالِ القَصْرِ" الجَعْفَرِيِّ" وَ" الإِيوَانِ "(ب)، ثُمَّ الرَّجَاءُ فِي حِمَايَةِ ذِكْرَى الخَلِيفَةِ المَغْدُورِ وَمَجْدِهِ مِنْ " خَلَفٍ مِنْ شَخْصِهِ لاَ يُغَادِرُهُ، مُقَلِّبُ آرَاءٍ لاَ تُخَافُ أَنَاتُهُ "[1]، تَمَامًا كَمَا يَحْمِي الجَبَلُ الأَرْعَنُ الإِيوَانَ مُنْذُ سِنِينَ(ج)، وَفِي نِهَايَةِ المَطَافِ يُضِيءُ الشَّاعِرُ المَاضِي عَبْرَ" كَأَنَّاتٍ " لِلحَنِينِ وَالرَّجَاءِ(د). وَمِنْ ثَمَّ تَجَاوَزَتْ وَظِيفَةُ (كَأَنَّ) مُجَرَّدَ الدَّلاَلَةِ عَلَى التَّشْبِيهِ وَالتَّوْكِيدِ إِلَى الكَشْفِ عَنِ النُّمُوِّ المتَدَرِّجِ لِلقَصِيدَةِ فِي تَشَكُّلِ بِنْيَتِهَا الكُلِّيَّةِ.

- خَاتِمَةٌ:

[1]- الدِّيْوَانُ، ص1059، وَالإِشَارَةُ هُنَا إِلَى آخِرِ بَيْتَيْنِ مِنَ المرْثِيَّةِ.

تَصِلُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ نِهَايَتَهَا وَهِيَ تَتَلَمَّسُ مَوَاطِنَ تَحْسَبُ أَنَّهَا سَتُضِيفُ لِقِرَاءَةِ الشِّعْرِ العَرَبِيّ القَدِيمِ شَيْئًا جَدِيدًا، وَهِيَ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، لاَ تَزْعُمُ أَنَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا، وَلاَ أَنَّهَا بَلَغَتْ فِيمَا أَتَتْهُ غَايَتَهَا، وَلَكِنَّهَا تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا عُذْرَ المُحَاوَلَةِ وَالتَّجْرِيبِ، وَنُبْلَ المَقْصِدِ، حِينَ تَوَخَّتْ جِدَّةَ المَطْلَبِ فِي إِجْرَاءِ بَعْضِ أَدَوَاتِ القِرَاءَةِ الحَدَاثِيَّةِ عَلَى نَصَّيْنِ تُرَاثِيَّيْنِ سَعْيًا مِنْهَا لِتَسْلِيطِ الضَّوْءِ عَلَى مَكَامِنِ الجَمَالِ فِيهِمَا عَبْرَ مَدَاخِلَ فَنِّيَّةٍ وَنَقْدِيَّةٍ نَرَاهَا جَدِيدَةً، أَمْكَنَتْنَا مِنْ تَبْيِينِ العَلاَقَاتِ الوَشِيجَةِ بَيْنَهُمَا فِي البِنْيَةِ وَالدَّلاَلَةِ وَإِنْ اخْتَلَفَ المَقَامَانِ فِي الظَّاهِرِ، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ تَرَسُّمَ هَذِهِ الأَدَوَاتِ سَيَكُونُ مُنْطَلَقًا أَكِيدًا لِتَحْدِيدِ أَهَمِّ سِمَاتِ الخِطَابِ فِي شِعْرِ البُحْتُرِيّ وَجَمَالِيَّاتِهِ.

- مَكْتَبَةُ البَحْثِ:

1- البُحْتُرِيُّ، أَبُو عُبَادَةَ الوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ، الدِّيْوَانُ، تَحْ: حَسَنُ كَامِلُ الصَّيْرَفِيُّ، دَارُ المَعَارِفِ، القَاهِرَةُ، مِصْرُ، ط2، 1963م.
2- أَحمَدُ محْمُودُ خَلِيلُ، فِي النَّقْدِ الجمَالِيّ- رُؤْيَةٌ فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيّ، دَارُ الفِكْرِ المعَاصِرِ، لُبْنَانُ، دَارُ الفِكْرِ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، دِمَشْقُ، سُورِيَا، د.ط، 1996م.
3- الأَخْضَرُ جَمْعِي، نَظَرِيَّةُ الشِّعرِ عِنْدَ الفَلاَسِفَةِ الإِسْلاَمِيِّينَ، دِيْوَانُ المطْبُوعَاتِ الجَامِعِيَّةِ، د.ط، جَانْفِي1999م.
4- أَنْوَرُ المرْتَجَى، سِيمْيَائِيَّةُ النَّصِّ الأَدَبِيّ، إِفْرِيقْيَا الشَّرْقُ، المغْرِبُ، د.ط، 1987م.
5- جَمَالُ الدِّين بْنُ الشَّيخ، فِي الشِّعْرِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، تَرْ: مُبَارَكْ حَنُّونْ وَمحَمَّدُ الوَلِيُّ وَمحَمَّدُ أُورَاغْ، دَارْتُوبْقَالْ لِلنَّشْرِ، الدَّارُ البَيْضَاءُ، المغْرِبُ، ط1، 1996م.
6- حَبِيبْ مُونْسِي، تَوتُّرَاتُ الإِبْدَاعِ الشِّعْرِيّ، دَارُ الغَرْبِ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، ط2001م-2002م.
7- رُوبَرْتْ شُولْزْ، السِّيمْيَاءُ وَالتَّأْوِيلُ، تَرْ: سَعِيدُ الغَانِمِيُّ، المؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط1، 1994م.
8- سُلَيْمَانُ البُسْتَانِيُّ، مُقَدِّمَةُ الإِلْيَاذَةِ، سِلْسِلَةُ الرَّوَائِعِ، المكْتَبَةُ الشَّرْقِيَّةُ، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط4، 1981م.
9- الصُّولِيُّ، أَبُو بَكْرٍ محَمَّدُ بْنُ يَحْيَ، أَخْبَارُ البُحْتُرِيّ، تَحْ: صَالِحُ الأَشْتَرُ، دَارُ الفِكْرِ، دِمَشْقُ، ط2، 1964م.
10- عَبْدُ المَلِكِ مُرْتَاضُ، الأَدَبُ الجزَائِرِيُّ القَدِيمُ - دِرَاسَةٌ فِي الجُذُورِ، دَارُ هُومَةُ، الجزَائِر، د.ط، 2000م.
11- عَبْدُ المَلِكِ مُرْتَاضُ، السَّبْعُ المعَلَّقَاتُ- مُقَارَبَةٌ سِيمْيَائِيَّةٌ/أُنْثْرُوبُولُوجِيَّةٌ لِنُصُوصِهَا - دِرَاسَةٌ، مَنْشُورَاتُ إِتِّحَادُ الكُتَّابِ العَرَبِ، دِمَشْقُ، د.ط،
12- مَاجِدْ يَاسِينْ الجَعَافِرَةُ، النَّنَاصُّ وَالتَّلَقِي- دِرَاسَاتٌ فِي الشِّعْرِ العَبَّاسِيّ، دَارُ الكِنْدِيّ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، إِرْبِدْ، الأُرْدُنُ، ط1، 2003م.
13- محمَّدُ عَبْدُ العَظِيمِ، فِي مَاهِيَّةِ النَّصِّ الشِّعْرِيّ - إِطْلاَلَةٌ أُسْلُوبِيَّةٌ مِنْ نَافِذَةِ التُّرَاثِ النَّقْدِيّ، المؤَسَّسَةُ الجَامِعِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط1، 1994م.
14- محَمَّدُ عَزَّامْ، النَّقْدُ وَالدَّلاَلَةُ - نَحْوَ تَحْلِيلٍ سِيمْيَائِيّ لِلأَدَبِ، مَنْشُورَاتُ وَزَارَةِ الثَّقَافَةِ، دِمَشْقُ، د.ط، 1996م.
15- محمَّدُ عَزَّامْ، النَّصُّ الغَائِبُ - تَجَلِّيَاتُ التَّنَاصِّ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيّ- دِرَاسَةٌ، إِتِّحَادُ الكُتَّابِ العَرَبِ، دِمَشْقُ، سُورِيَا، د.ط، 2001م.
16- محمَّدُ مَفْتَاحُ، فِي سِيمْيَاءِ الشِّعْرِ القَدِيمِ - دِرَاسَةٌ نَظَرِيَّةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ، دَارُ الثَّقَافَةِ، المغْرِبُ، ط1، 1989م.
17- مُصْطَفَى أَبُو كَرِيشَةَ، أُصُولُ النَّقْدِ الأَدَبِيّ، مَكْتَبَةُ لُبْنَانَ نَاشِرُونَ، بَيْرُوتُ، ط1، 1996م.
18- المَقَرِيُّ، شِهَابُ الدِّينِ أَحمَدُ بْنُ محَمَّدٍ التِّلِمْسَانِيُّ، نَفْحُ الطِّيبِ مِنْ غُصْنِ الأَنْدَلُسِ الرَّطِيبِ، ج1، دَارُ صَادِر، بَيْرُوتُ، لُبْنَانُ، ط1، 1900م.
19- Gérard Gengembre, Les Grands Courants de la critique littéraire, éditions du seuil, 1996.
20- Jean-Luis de Rambures, Comment travaillent les écrivains, Flammarion, Paris, 1978.
21- Julia Kristeva, Le Texte Clos, Langages,(Linguistique et littérature), 3eme Année, N°12, Didier/Larousse, Décembre 1968